سيرة ابن القيم

الشيخ أحمد الجوهري

سيرة ابن القيم

فوائد من حياة شيخ الإسلام **الإمام ابن قيم الجوزية** رحمه الله تعالى أكتبها ابتغاء نشر سيرة هذا العالم الصالح وإفادة بما فيها من المنافع والفوائد والمصالح.

١- تلاميذ ابن القيم

من تلاميذ **الإمام ابن قيم الجوزية** الأئمة: ابن رجب، وابن كثير، والسبكي، والصَّفَدِي، وابن عبد الهادي، والفيروزابادي، وغيرهم.

وهم أئمة عظام كرام كبار، والأستاذ يشرف قدره - فيما يشرف - بتلامذته، ونصيب ابن القيم من هذا كبير.

رحمه الله تعالى ورحمهم ورفع درجاتهم أجمعين في عليين.

٢- كان **ابن القيم رحمه الله تعالى** يدرس وقته كله، يطالع ويكتب، ويعلم، وقد رزقه الله تعالى بسبب ذلك العلم الكثير المتنوعة، وصار فردًا في علوم شتى.

٣- مصنفات **ابن القيم رحمه الله تعالى** كثيرة النفع، عظيمة الفائدة.

ومن محاسنها أنها مقبولة عند جميع طوائف المسلمين، يرغبونها ويستفيدون منها.

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى عن ذلك: "وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف".

وهذا فتح من الله تعالى لهذا الإمام طيب الله ثراه.

٤- يتميز أسلوب **ابن القيم رحمه الله تعالى** في كتبه بأشياء كثيرة، منها:

- اليسر والسهولة.

- الترتيب والتنظيم.

- البسط والتطويل.

وهذه الأمور عطفت القلوب والعقول على مصنفاته تحوزها وتطالعها وتتأملها وتستفيد منها، فعمت وانتشرت وأفادت ونفعت.

٥- **و ابن القيم** هو شارح **ابن تيمية**، عمد ابن القيم إلى كتب شيخه ومقولاته وآرائه ما دونه ابن تيمية منها وما لم يدونه فبسطها **ابن القيم** بقلمه وبينها بعبارته وهذبها ورتبها واستدل لها وحاجج عنها وأضاف إليها وتصرف فيها.

مع نفس طويل وملكة قوية أوتيها رحمه الله تعالى في كل ذلك.

فكان التلميذ نعم المدخل لمن أراد أن يقرأ للشيخ، وكانت في كتبه الكفاية لمن أراد أن يكتفي.

٦- من طرائق **ابن القيم رحمه الله تعالى** في كتبه أنه يدندن حول المسائل التي يقول بها هو أو يقول بها هو وشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى، ويسعى في نصرها بقوة، ويحتج لها بكل

ممكن، ويناقش مخالفها، حتى يقتنع القارئ بما يقوله من شدة إيمانه وقوله في المسألة، وهذه سمة بارزة يلحظها من يقرأ كتبه.

٧- كانت علاقة **ابن القيم** بشيخه **ابن تيمية** أقوى وأبرز محطات حياته رحمهما الله تعالى، وقد نص هو على ذلك في مواطن عدة، أبرزها ما نظمه في النونية - الكافية الشافية عن شيخه وتأثره به.

ولم تعد هذه العلاقة على **ابن القيم** وحده بالنفع بل عادت على **ابن تيمية** كذلك، على النحو الذي تقدم بيانه من عناية الطالب بعلوم الشيخ وشرحها وإذاعتها.

جدير بالذكر أن هذه العلاقة قد عادت بالضرر الكبير على ابن القيم، لكنه الضرر النافع الدافع الرافع، وسنتعرض لهذه النقطة لاحقًا عندما نتكلم عن محنة **ابن القيم**، فما كان ذلك الضرر إلا من هذه الجهة ثم عادت المحنة منحة بل منحًا.

٨- كانت مجالس **ابن القيم** عامرة - كما هو حال تصانيفه - تملؤها الفوائد النافعة وتحوطها البركة، ينتفع بها العلماء قبل العامة، وكانت مجالسه ينتفع به في علوم شتى: الأصول، واللغة، والفقه، والإقراء، والفتيا، والحديث.. إلخ.

وقرأ العلماء عليه أو سمعوا مصنفاته في هذه المجالس.

٩- كان إتقان **ابن القيم** للعلوم، مع براعته في تقريرها، وتأصيل ذلك كله على سنن الكتاب والسنة والآثار، والعناية الشديدة بتحري طريق السلف الصالح رضوان الله عليهم سببًا في علو كعبه ورفعته بين أهل عصره.

وبشيء يسير من التأمل في هذا الخبر يمكن إدراك ذلك: "قال ابن ناصر الدين الدمشقي: قال شيخنا الحافظ أبو بكر محمد بن المحب - فيما وجدته بخطه -: قلت أمام شيخنا المزي: ابن القيم في درجة ابن خزيمة؟ فقال: هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه".

١٠- عناية ابن القيم بجمع الكتب شديدة، أثارت انتباه علماء عصره، ونصوا عليها في ترجمته، وذكروا أنه توفر عليها عمره، وكانت له همة في جمع الكتب في كل الفنون ويجمع من كل كتاب عدة نسخ، وقد آلت كتبه إلى ثلاثة أقسام:

- قسم أوقفه.

- وقسم اقتناه أبناؤه وورثته وكانوا يعيرونها لم يستفيد منها.

- وقسم باعه أبناؤه وورثته.

وقد كان لكثرة الكتب هذه أثر في تصانيف ابن القيم مما يفيد قراءته لها واستفادته منها، ومن نظر في كتبه ورأى نقولاته أدرك ذلك فربما نقل في مصنف له من مئة كتاب.

١١- تنوعت تصانيف ابن القيم رحمه الله تعالى من حيث الحجم، والفن، والنهج، والأسلوب.. إلخ.

فله النظم مثل: النونية، **والنثر**، مثل: اجتماع الجيوش الإسلامية، **والصغير** مثل: حكم تارك الصلاة، **والكبير** مثل: زاد المعاد، **واليسير** مثل: طريق الهجرتين، **والعسير** مثل: مدارج السالكين، **وما كتبه في سفر** مثل: زاد المعاد، ومفتاح دار السعادة، وبدائع الفوائد، والفروسية، وتهذيب سنن أبي داود، وروضة المحبين، **وما كتبه في الحضر** مثل سائر كتبه.

ومنها في الحديث، والرقائق، والعقائد، وعلوم القرآن، والسيرة، والفقه، والسياسة الشرعية **وهي كثيرة جليلة بلغت ٩٨ مؤلفًا.**

١٢- تتميز كتب **ابن القيم** بأمور، من أبرزها: كثرة الأدلة، وإظهار الحكمة والعلة، وطلاوة العبارة، وإشراقة الأسلوب، والترتيب والتنظيم.

١٣- القارئ في كتب **ابن القيم - رحمه الله تعالى -** يرصد تألهه وتضرعه وابتهاله ومناجاته لرب العالمين، وهذه شخصيته كذلك في الحقيقة: كثير الصلاة، متقنها، طويلها، كثير الحج، عظيم الاجتهاد أثناء أداء مناسكه، سالكًا ناسكًا يشتهر بهذا بين أبناء عصره يبز أهل العلم كلهم في هذا.

١٤- أوذي **ابن القيم** مرات، وكانت إذايته بسبب علاقته **بابن تيمية** لموافقته له فيما انتقد عليه وامتحن لأجله فاعتقل معه وبعده بسبب هذه المسائل.

وقد رفعه الله تعالى بهذه المحن في عيون أتباعه وأبناء عصره من علماء وعامة وكذا في أعقابهم في هذه المدة من التاريخ إلى يومنا هذا، فقد كان قبل المحنة وأثناءها وبعدها على نسق واحد من قول الحق والاجتهاد في نصرته وضم العمل إلى العمل والجد فيه.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أنه انتفع باعتقاله في تحصيل جانب التصوف السني وبسبب ذلك كانت مصنفاته المفيدة في هذا.

١٥- كان **ابن القيم رحمه الله تعالى** حسن الأخلاق: يتودد ولا يخالف، ويحسن ولا يؤذي ويحب لغيره الخير ولا يحسد ويغض الطرف عن عيب غيره ولا يسعى في كشفه سليم الصدر لإخوانه لا يحقد عليهم.

يشهد بهذه الأخلاق له العلماء المأمونون، ومنهم الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العالم المسلم.

١٦- أحصيت أعمال **ابن القيم** فوجدتها كالتي: إمامة الصلاة، تدريس العلوم، إقراء القرآن، إسماع الكتب، إفتاء الناس، تصنيف الكتب، المناظرة.

بين هذه الروضات الباسقات كان **ابن القيم - رحمه الله تعالى -** يتنقل ويعيش.

١٧- مدح **ابنَ القيم** علماءُ عصره ومن بعدهم بأشياء، منها: سيلان ذهنه، وميل فكره إلى حل الغوامض، وافتنانه في العلوم، وجمعه الكتب، وانكبابه على العلوم، وتبحره، وتحريره، وجرأته وثبات جأشه، وقناعته برأيه وصبره على نصرته، وقيامه على نشر العلم بقوة عن طريق التدريس والتصنيف والمناظرة وغيرها.

فهذه عشرة منها.

١٨- يجمع كل من ترجم **ابن القيم** على أن لقاءه **بشيخ الإسلام ابن تيمية** - رحمهما الله تعالى - كان نقطة التحول الأكبر في حياته، وهو نفسه يذكر هذا في مواضع من نثره ونظمه، رغم أنه لقي قبله من السادة العلماء جمعًا كثيرًا جمًّا غفيرًا.

وهكذا.. مثلما أن الكلمة التي يمكن أن تكون فيه نجاتك قد تتأخر فإن الشيخ الذي يكون به عليك الفتح والرفعة قد يتأخر، ومثلما يطلب منك دوام السماع والقراءة والتأمل مما ينفعك تعلمه يطلب منك كذلك دوام البحث والتفتيش عمن تنفعك صحبته.

٢٠- لفت نظري في شخصية **ابن القيم رحمه الله تعالى**: الاستمساك بما أداه إليه اجتهاده والصبر عليه رغم العواقب.

لا تحسب هذا يقتصر على جانب العلم فقط، بل إنه يشمل جانب العلم وجانب العبادة.

يذكر ابن كثير رحمه الله تعالى ذلك في جهة العبادة فيقول: **"ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادةً منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا ويمدُّ ركُوعَها وسجُودَها، ويلومه كثير من أصحابنا في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله".**

هذا عن العبادة.

ويذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ذلك في جهة العلم فيقول: **"وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وهو طويل النفس فيها، يتعانى الإيضاح جهده، فيسهب جدًّا، ومعظمها من كلام شيخه يتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها، ويحتج لها".**

هذه شخصية **ابن القيم رحمه الله تعالى.**

فإذا فهمتها سهل عليك أن تقرأ قول الذهبي عنه في المعجم المختص: "ولكنه معجب برأيه، جرى عليه أمور" هكذا، أو هكذا: "معجب برأيه جريء على الأمور"، لا يهم أي منهما الصواب.

٢١- **من أبواب العلم: الكتابة.**

وفي ترجمة **ابن القيم - رحمه الله تعالى** - تكررت هذه الجملة: وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة، وصنف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلم. وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره.

٢٢- ربما تقرأ في بعض تراجم **ابن القيم** مثل هذه العبارة: "وله تصانيف عديدة لولا ما فيها مما شذّ فيه شيخُه ابن تيمية عن جماعةِ العلماء" فتهولك، وليست بشيء، فلم يشذ الشيخ والطالب في اختياراتهما بشيء، وقد بين ذلك مفصلًا برهان الدين **ابن القيم** في كتابه **"اختيارات ابن تيمية"**.

لقد حرص الشيخان - أكثر ما حرصا - على الاتباع والبعد عن الابتداع وقد كان هذا مسلكهما في كل ما قالا به في العقائد والفقهيات.

٢٣- من الجمل التي وقفت أمامها طويلًا عند التقي الفاسي في كتابه: "إيضاح بُغية أهل البصارة في ذيل الإشارة" قوله في ترجمة **ابن القيم**: "وتأذّى **ابنُ تيمية** بسببه؛ لأنه أعلن عن **ابن تيمية** بكثير من المسائل المنتقدة عليه، وأوذي هو بسببها أيضًا".

فهو هنا يقول: إن **ابن القيم** هو من آذى **ابن تيمية** بسبب ما أعلنه عنه من مسائل منتقدة، وهذا عكس ما هو مشهور من أن **ابن القيم** هو من قال بهذه الأقوال يناصر بها شيخه، وأيضًا فإن هذه الأقوال لم يكن ابن تيمية يستسر بها أو يحدث بها في الخلوات ويستكتم عليها أصحابه بل كانت معلومة لكل أبناء عصره من العلماء.

فلا أدري ما هو وجه هذا القول والله أعلم.

٢٤- الألقاب التي أطلقها المؤرخون على ابن القيم كثيرة، ومنها:

- إمام الجوزية

- الشيخ

- الكبير

- المشهور

- الإمام

- الحبر

- المصنف

- العالم

- العلامة

- المحقق

- أحد الأعلام

- أوحد المحققين.

- علم المصنفين.

- نادرة المفسرين

- الفاضل

- الحافظ

- المفتن

- ذو الفنون

- الفقيه.

- الأصولي.

- المتكلم.

- المفسر.

- النحوي.

- العارف.

- صاحب التصانيف المنوعة

- العلَم

- أجل أصحاب ابن تيميّة

- الحجةُ.

- المتقدِّم في سَعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان.

- رئيس أصحاب ابن تيمية، بل هو حسنة من حسناته.

- المُجمع عليه بين المُخالف والموافق.

- صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجَمَّة.

- العارف بالحديث ومعانيه، والفقه ودقائقه والاستنباط منه.

- الفقيه الحنبلي، بل المجتهد المطلق.

- البارع في عدة علوم.

- علم المصنفين.

- الصادق.

فهذه (٣٧) **لقبًا** دارت عليها مقدمات تراجم المؤرخين وأصحاب السير الذين تكلموا عن هذا الإمام الكبير.

٢٥- عجائب

في بلادنا العربية والإسلامية عجائب جمة، منها: أن يعيش الإمام من أولئك الأئمة يحارب الضلالة فإذا مات وجدت من يعملها معه!

عاش **ابن القيم** يحارب القباب على القبور، فتأمل ما يقول نعمان قساطلي في كتابه **"الرَّوضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء"** في نهاية ترجمة **ابن القيم**: مات سنة ٧٥١، ودفن بمقبرة باب الصغير، تجاه المدرسة الصابونية، وبُني على قبره قبّة.

٢٦- لما أتى الشوكاني على قول الذهبي في **ابن القيم** - رحمهم الله تعالى -: "ولكنه معجب برأيه، جريء على الأمور".

قال: "بل كان متقيدًا بالأدلة الصحيحة، معجبًا بالعمل بها، غير معوِّل على الرأي، صادعًا بالحق، لا يحابي فيه أحدًا، ونِعْمَت الجرأة".

إلى أن قال: "وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جُنّة، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيرًا".

٢٧- وصف مؤلفات **ابن القيم** من ألفاظ المؤرخين:

تنوعت ألفاظ المؤرخين في وصف مؤلفات ابن القيم - رحمه الله تعالى -، ومن ذلك قولهم عنها:

- ومصنفاته سائرة مشهورة.
- وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير.
- وتصانيفه ممتلئة بذلك - الأذواق والمواجيد الصحيحة -.
- وصنف تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلم.
- وله تصانيف عديدة، وصنف كثيرًا.
- صاحب التصانيف المنوعة.
- له التصانيف الأنيقة والتآليف التي في علوم الشريعة والحقيقة.
- وتصانيفه كثيرة.
- وصنف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلم.
- وصنف تصانيف كثيرة حسنة مشهورة.
- ومصنفاته كاسمه شهرة.
- وله تصانيف جمة الفوائد.
- وصاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة.
- صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة.
- وصنف تصانيف كثيرة في أنواع العلم.
- وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه.

- صنف تصانيف كثيرة في أنواع العلم.
- وله عدة مصنفات في علوم شتى.
- وصنف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلم.
- وله مصنفات كثيرة في فنون عديدة.
- وله مصنفات كثيرة في فنون عديدة.
- صاحب المؤلفات الكثيرة الحافلة.
- التصانيف الحسنة المقبولة.
- وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف.
- وله مصنفات عديدة في فنون كثيرة.

٢٨- أسماء العلماء والمؤرخين الذين ترجموا **لابن القيم** وأسماء كتبهم:

ترجم **ابن القيم - رحمه الله تعالى** - جمع من العلماء وكتاب التاريخ، وفيما يلي أسماؤهم وأسماء كتبهم مرتبة على التاريخ:

- الذهبي (ت ٧٤٨)، في «المعجم المختص».
- خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤)، في: «الوافي بالوفيات»، «أعيان العصر».
- ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤)، في: «عيون التواريخ».
- أبو المحاسن الحسيني (ت ٧٦٥)، في: «ذيل العبر».
- عماد الدين إسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤)، في: «البداية والنهاية».

- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (ت ٧٩٥)، في: «المنتقى من معجم شيوخ شهاب الدين ابن رجب»، «الذيل على طبقات الحنابلة».
- زين الدين العراقي (ت ٨٠٦)، في: «الذيل على ذيل العبر».
- تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢)، في: «إيضاح بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة»، «تعريف ذوي العلا بمن لم يذكرهم الذهبي في النبلا».
- ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢)، في: «توضيح المشتبه»، «الرد الوافر على من زعم: أن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافر».
- لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، في: «السلوك لمعرفة دول الملوك».
- ابن نصر الله الحنبلي (ت ٨٤٦)، في: «مختصر الذيل على طبقات الحنابلة».
- ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١)، في: «تاريخ ابن قاضي شهبة».
- ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، في: «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، «تجريد الوافي بالوفيات».
- بدر الدين العيني (ت ٨٥٥)، في: «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان».
- ابن تغري بردي (ت ٨٧٤)، في: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي»، «الدليل الشافي على المنهل الصافي».
- حمزة بن أحمد بن علي الحسيني (ت ٨٧٤)، في: «المنتهى في وفيات أولي النهى».
- برهان الدين ابن مفلح (ت ٨٨٤)، في: «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد».
- لابن عزم التونسي (ت ٨٩١)، في: «دستور الأعلام».

- محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢)، في: «وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام».
- جلال الدين السيوطي (ت ٩١١)، في: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة».
- عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (ت ٩٢٠ هـ)، في: «نيل الأمل في ذيل الدول».
- عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧ هـ)، في: «الدارس في تاريخ المدارس».
- مجير الدين العليمي (ت ٩٢٨)، في: «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد»، «الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد».
- محمد بن أحمد ابن إياس (ت ٩٣٠)، في: «بدائع الزهور في وقائع الدهور».
- الداوودي (ت ٩٤٥)، في: «طبقات المفسرين».
- القاضي محمود العدوي الزوكاوي (ت ١٠٣٢)، في: «الزيارات».
- مرعي الكرمي الحنبلي (ت ١٠٣٣)، في: «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية».
- حاجي خليفة (ت ١٠٦٩)، في: «سلم الوصول إلى طبقات الفحول».
- لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩)، في: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب».
- أحمد بن محمد الأدنه وي (ت بعد ١٠٩٥)، في: «طبقات المفسرين».
- عثمان بن أحمد السويدي (ابن الحوراني) (ت ١١١٧)، في: «الإشارات إلى أماكن الزيارات».
- عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي (ت ١١٣٨)، في: «حدائق الإنعام في فضائل الشام».
- عبد الرحيم بن مصطفى ابن شقدة (ت ١١٦٠)، في: «منتخب شذرات الذهب في أخبار من ذهب».
- أبو المعالي محمد ابن الغزي (ت ١١٦٧)، في: «ديوان الإسلام».

- محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠)، في: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع».
- صديق حسن القنوجي ت (١٣٠٧)، في: «أبجد العلوم»، «التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول».
- محمد باقر الموسوي الخوانساري (ت ١٣١٣)، في: «روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات».
- نعمان الآلوسي (ت ١٣١٧)، في: «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين».
- نعمان قساطلي (ت ١٣٣٨)، في: «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء».

فهؤلاء تسعة وثلاثون مؤرخًا، في ثمانية وأربعين كتابًا.

٢٩- المسائل التي ذكروا أن **ابن القيم** ابتلي من أجلها وامتحن

أوذي **ابن القيم رحمه الله تعالى** وسجن من أجل أنه تبنى بعض الأقوال العلمية: صنف فيها، أو أفتى بها، أو نصر من قال بها، وهذه هي المسائل بحسب ما جاء في كتب المؤرخين:

١- إنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل أو "المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء".

٢- التصدي للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية.

٣- جواز المسابقة بغير محلل.

٤- الإفتاء بجواز المراجعة من الطلاق الكبير بغير محلل، هكذا قال عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (ت ٩٢٠ هـ) في «نيل الأمل في ذيل الدول»، وهو غير صحيح ألبتة، والمسألة هي هذا غلط على ابن القيم، وإنما المسألة هي اعتبار الطلاق الثلاث بفم واحد طلقة واحدة، وهي سابقة.

٥- تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة.

وقد امتحن وأوذي مرات، كما يقول ابن رجب - رحمهما الله تعالى -.

٣٠- العلوم التي تفوق فيها ابن القيم

تفوق ابن القيم في علوم كثيرة، جاء النص على بعضها في كتابات المؤرخين، أذكر هنا هذه العلوم ومن قال بفوقه فيها:

١) الذهبي: "وعني بالحديث متونه ورجاله، وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين.

٢) الصفدي: "وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير، والحديث، والأصول فقهًا وكلامًا، والفروع، والعربية"، "قد تبحر في العربية وأتقنها، وحرر قواعدها ومكنها، واستطال بالأصول، وأرهف منها الأسنة والنصول، وقام بالحديث وروى منه، وعرف الرجال وكل من أخذ عنه، وأما التفسير فكان يستحضر من بحاره الزخارة كل فائدة مهمة، ومن كواكبه السيارة كل نير يجلو حنادس الظلمة، وأما الخلاف ومذاهب السلف فذاك عشه الذي منه درج، وغابه الذي ألفه ليثه الخادر ودخل وخرج".

٣) ابن شاكر الكتبي: "وبرع في علوم متعددة لا سيما علم الحديث، والتفسير، والأصلين".

٤) ابن كثير: "فبرع في علوم متعددة، لاسيما علم التفسير، والحديث، والأصلين".

٥) شهاب الدين ابن رجب: "نادرة المفسرين.. وساد أهل وقته علمًا وعملًا أصولًا وفروعًا"، "وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه. وتفنن في علوم الإسلام. وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى؛ وبالحديث ومعانيه

وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك؛ وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك. وكان عالما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى"، "وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك".

٦) ابن ناصر الدين الدمشقي: "وكان ذا فنون من العلوم، وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم".

٧) المقريزي: "برع في عدة علوم، ما بين تفسير وفقه وعربية، وغير ذلك".

٨) ابن نصر الله الحنبلي: "وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه. وتفنن في علوم الإسلام. وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيه المنتهى. وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالما بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم. له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى".

٩) ابن حجر: "وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف".

١٠) ابن تغري بردي: "وكان بارعا في عدة علوم، ما بين تفسير وفقه وعربية ونحو وحديث وأصول وفروع.. أحد أفراد زمانه. وتصدى للإقراء والإفتاء سنين، وانتفع به الناس قاطبة".

١١) برهان الدين ابن مفلح: "وتفقه في المذهب، وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين، وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، كان عارفا بالتفسير وبأصول الدين والفقه، وله اعتناء بعلم الحديث، والنحو، وعلم الكلام والسلوك".

١٢) السخاوي: "العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان".

١٣) السيوطي: "وصنف وناظر، واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية".

١٤) ابن شاهين الظاهري: "وكان إماما عالما، فاضلا بارعا في عدة علوم".

١٥) النعيمي: "وتفنن في علوم شتى، وكان عارفا عالما بالتفسير وبأصول الدين والفقه، وله اعتناء بعلم الحديث والنحو، وعلم الكلام والسلوك".

١٦) العليمي: "وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وكان عالما بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى".

١٧) الزوكاوي: "الفقيه الأصولي النحوي المفسر المفنن في علوم كثيرة، العارف بالحديث ومعانيه، والفقه ودقائقه والاستنباط منه".

١٨) مرعي الكرمي الحنبلي: "كان ذا فنون من العلوم، صاحب إدراك لسرائر المنطوق والمفهوم، وبرع في علم الحديث بحيث انتهت إليه فيه الرئاسة".

١٩) حاجي خليفة: "من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفقه والأصلين والعربية".

٢٠) ابن الحوراني: "المفنن في علوم كثيرة، لا يجارى في التفسير والأصول، وإليه في هذا الفن الانتهاء. عارف بالحديث ومعانيه، وفقهه ودقائقه، والاستنباط منه، لا يلحق في ذلك".

٢١) ابن شقدة: "المفسر، المفنن في علوم كثيرة، العارف بالحديث ومعانيه، والفقه ودقائقه والاستنباط منه".

٢٢) الشوكاني: "وبرع في جميع العلوم، وفاق الأقران، واشتهر في الآفاق وتبحر في معرفة مذاهب السلف".

٢٣) صديق حسن خان: "وتفقه في المذهب، وأفتى وتفنن، وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى؛ وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، من كلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم. له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى والمعرفة الشاملة، وكان عالمًا بالملل والنحل ومذاهب أهل الدنيا علمًا أتقن وأشمل من أصحابها، وكان جريء الجنان واسع العلم والبيان، عارفًا بالخلاف ومذاهب".

- نعمان الآلوسي: "وتفنن في كافة علوم الإسلام، وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه ودقائق الاستنباط فيه لا يلحق في ذلك، وبالفقه والأصول والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام والتصوف".

٢٤) نعمان قساطلي: "الفقيه الأصولي النحوي المفسر المفنن في علوم كثيرة".

٣١- يحتاج طالب العلم والباحث إلى مراجعة الكتب التي أرخت للعالم جميعها وإلى غيرها ليستخرج الحق من الباطل ويقف على الصواب من الخطأ.

ولو أنه اكتفى بمثل قول صاحب الذيل على ذيل العبر: "وله تصانيف عديدة لولا ما فيها ما شذ فيه شيخه ابن التيمية عن جماعة العلماء" لرمى ابن القيم وشيخه بالشذوذ، وحاشاهما من هذا.

ولو أنه وقف عند قول مؤلف إيضاح بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة: "وتأذى **ابن تيمية** بسببه، لأنه أعلن عن **ابن تيمية** بكثير من المسائل المنتقدة عليه، وأوذي هو بسببها أيضًا" لم يصب وجه الحقيقة.

ولو أنه قرأ كلام مصنف أبجد العلوم: "وكانت مدة ملازمته **لابن تيمية** منذ عاد من مصر اثنتي عشرة سنة إلى أن مات"، ولم يراجع غيره ما أصاب الحقيقة، فإن المصادر كلها تذكر الخبر هكذا: "ولزم **شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية** بعد عوده من القاهرة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة حتى مات" وبينهما فرق بلا ريب، فالمدة الأولى اثنتا عشرة سنة والثانية ست عشرة سنة تقريبًا.

ولو أنه طالع قول مؤلف نيل الأمل في ذيل الدول: "وسمع على التقي **ابن تيمية**، وامتحن معه، وانفرد بأشياء قال بها، وأفتى بجواز المراجعة من الطلاق الكبير بغير محلل، وامتحن بسبب ذلك حتى رجع عنه".

ثم لم يطالع غيره لقال بغير الحقيقة وأخطأ على ابن القيم خطأ شنيعًا، فإن المسألة هي: اعتبار الطلاق الثلاث بفم واحد طلقة واحدة.

فهذه أمثلة فقط من ترجمة **ابن القيم** وحده تدل على المقصود.

٣٢- الصفات التي ذكرها المؤرخون في ترجمة **ابن القيم** - رحمه الله تعالى -:

هناك صفات ذكرها المترجمون لشخصية **ابن القيم** أجمعها هنا لتعطي صورة عنه مع ما تقدم من الكلام على علمه وكتبه وغير ذلك، فمن هذه الصفات:

- الذهبي: معجب برأيه، جريء على الأمور.

- الصفدي: وكان ذا ذهن سيال، وفكر إلى حل الغوامض ميال.."، "وكان جريء الجنان ثابت الجأش لا يقعقع له بالشنان، وله إقدام وتمكن أقدام، وحظه موفور، وقبوله كل ذنب معه مغفور".

- ابن شاكر الكتبي: حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد أحد ولا يؤذيه ولا يستغيبه ولا يحقد عليه.

- ابن كثير: "كان قليل النظير، بل عديم النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة".

- الشهاب ابن رجب: "وساد أهل وقته علما وعملا أصولا وفروعا، مع الخشوع والعبادة الطويلة والتواضع والصبر".

- ابن نصر الله الحنبلي: وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة، والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علما، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله.

- ابن حجر: وكان جريء الجنان.

- السخاوي: العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان.

- الشوكاني: كان متقيدا بالأدلة الصحيحة، معجبا بالعمل بها، غير معول على الرأي صادعا بالحق لا يحابي فيه أحدا، ونعمت الجرأة.

٣٣- خلط الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شيء من أحوال ابن القيم رحمه الله تعالى وذلك في كتاب **"الدرر الكامنة"** فجرى بعده على هذا الخلط بعض المؤرخين.

وهذا الخلط هو في قوله:

- وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي، لو لم أقعدها سقطت قواي.

- وكان يقول: بالصبر والفقر واليقين تنال الإمامة في الدين. وكان يقول: لابد للسالك من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه.

وهذا من أحوال **ابن تيمية** وكلامه نقله **ابن القيم** عنه، وقد توهم ابن حجر أنها **لابن القيم**.

٣٤- والد **ابن القيم رحمه الله تعالى** (ت (٧٢٣هـ).

ذكر العلماء والد **ابن القيم رحمه الله تعالى**، ومما قالوه عنه:

- ابن كثير: "الشيخ العابد: أبو بكر".. "كان رجلًا صالحًا، متعبدًا، قليل التكلف، وكان فاضلًا..."، "سمع شيئًا من دلائل النبوة على الرشيدي العامري".

- الصفدي: "وأخذ الفرائض أولا عن والده وكان له فيها يد"، "وأخذ الفرائض أولًا عن والده، وكان له فيها يد".

- ابن حجر: "وكان لأبيه في الفرائض يد فأخذها عنه".

- ابن تغري بردي: "وأخذ الفرائض أولا عن والده كان له فيها يد".

- الشوكاني: "وأخذ الفرائض عن أبيه".

٣٥- أخو **ابن القيم**: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب [٦٩٣ - ٧٦٩ هـ].

ذكره الأئمة بالعلم والفضل، ومن ذلك:

- ابن رجب: "سمعت عليه كتاب (التوكل) لابن أبي الدنيا، بسماعه على الشهاب العابر. وتفرد بالرواية عنه".

- ابن حجر: "تفرد بالرواية عن الشهاب العابر".

٣٦- أولاد ابن القيم:

رزق **ابن القيم** - رحمه الله تعالى - أولادًا صالحين، صار منهم علماء صالحون، وقد حفظ لنا التاريخ منهم:

١- عبد الله [٧٢٣ - ٧٥٦هـ] عالم فقيه مدرس خطيب.

ومن كلام العلماء عنه:

- ابن كثير: "الشيخ ... الفاضل المحصل، جمال الدين عبد الله بن العلامة شمس الدين ... كانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق، أفتى ودَرَّسَ وأعاد وناظر، وحج مرات عديدة، رحمه الله وَبَلَّ بالرحمة ثراه"، "ذكر الدرس بالصدرية **شرف الدين عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية** عوضًا عن أبيه رحمه الله، فأفاد وأجاد، وسرد طرفًا صالحًا في فضل العلم وأهله"، وذكر قيامه بالخطابة كذلك.

- ابن رجب: "كان أعجوبة زمانه".

- ابن حجر: "اشتغل على أبيه وغيره، وكان مفرط الذكاء، حفظ سورة الأعراف في يومين، ثم دَرَسَ (المحرر) في الفقه، و (المحرر) في الحديث ... ومهر في العلم، وأفتى ودَرَّسَ، وحج مرارًا"، "صلى بالقرآن سنة ٧٣١هـ".

٢- إبراهيم [٧١٦هـ-٧٦٧هـ] عالم، فقيه، نحوي، محدث.

ومن كلام العلماء عنه:

- الذهبي: "قرأ الفقه والنحو على أبيه، وسمع وقرأ وتَنَبَّه وسَمَّعَه أبوه من الحجَّار".

- ابن كثير: "كان بارعًا فاضلًا في النحو والفقه وفنون أخر على طريقة والده، رحمهما الله تعالى، وكان مدرسًا بالصدرية، والتدمرية، وله تصدير بالجامع، وخطابة بجامع ابن صلحان".

- ابن رافع: "طلب الحديث وقتًا، وتَفَقَّه، واشتغل بالعربية، وشرح ألفية ابن مالك".

- ابن قاضي شهبة: "وكان له أجوبة مسكتة".

٣٧- محاور المشروع العلمي الذي تدور عليه مصنفات **ابن القيم**.

تدور جهود **ابن القيم رحمه الله تعالى** في مصنفاته على عدة محاور:

- **الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما**، والتحاكم إليهما عند التنازع، ونبذ ما يخالف ذلك من الآراء والأقوال، فتجعل نصوص الوحي المنزل حكمًا على ما سواها من آراء الرجال وأقوالهم.

- **الدعوة إلى اتِّباع السنة النبوية الصحيحة النقية**، كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير مما خالط ذلك من البدع الْمُحْدَثَات، التي تَدَيَّنَ بها كثير من الناس، معرضين - في الوقت نفسه - عن الثابت الصحيح من سنته صلى الله عليه وسلم.

- **ذمُّ التقليد الأعمى**، الذي يحمل المقلد على ترك ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لقول مُقَلَّدِهِ، فلا يرى الحق إلا مع إمامه، ولا يقبل من الدين إلا ما جاء من طريقه.

- **ذمُّ التعصب المذهبي ومحاربته**، وكشف عواره، والتحذير منه.

- **محاربة الانحراف في العقيدة**، والدعوة للرجوع إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة في باب العقيدة: فَهْمًا وسلوكًا.

- **تقرير أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة لا يضربُ بعضُهَا بعضًا**، وأنها تتفق ولا تفترق، وأنها كلٌّ لا يتجزأ، ولذا فإنه لا ينبغي أخذ بعضها وترك بعضها الآخر، فيأخذ أحدهم ما يناسبه، ويَطِّرِح ما يخالف هواه، بل لابد من تنْزيل كل نص من نصوصها منْزله، وحمله على ما وُضِعَ له.

- **الحرص على توجيه العلماء والمفتين والمبلغين عن رب العالمين**، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن يكونوا صادقين مخلصين، عالمين عاملين، صادعين بالحق لا يخافون.

- **محاربة الفساد والأوضاع الخاطئة في مجتمعه**، وإنكار المنكرات السائدة فيه، والتحذير منها.

وقد فصل القول في هذه المحاور جمال بن محمد السيد في كتابه: **"ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها"**.

٣٨- شيء من صفة محنة **ابن القيم:**

وصف العلماء شيئًا مما جرى **للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى**، ومن ذلك:

- الذهبي: وقد حبس مدة وأوذي.

- الصفدي: وكان قد اعتقل مع **الشيخ تقي الدين بن تيمية** في قلعة دمشق بسبب «مسألة الزيارة»، ولم يزل إلى أن توفي **الشيخ تقي الدين**، فأفرج عنه في ثالث عشري الحجة سنة ثمان وعشرين وسبع مئة.

- ابن كثير: "وقد كان متصديًا للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها **الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله**، وجرت له بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره.

- الشهاب ابن رجب: "وقد حبس مدة"، "وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع **الشيخ تقي الدين** في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ".

- تقي الدين الفاسي: وتأذى ابن تيمية بسببه، لأنه أعلن عن **ابن تيمية** بكثير من المسائل المنتقدة عليه، وأوذي هو بسببها أيضًا"

- ابن ناصر الدين الدمشقي: "وقد أوذي وامتحن مرات".

- المقريزي: "وضُرِب **شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية**، وشُهِّرَ به على حمار بدمشق".

- ابن قاضي شهبة: "وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع شيخه في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه؛ ولم يفرج عنه إلا بعد موت شيخه".

- ابن حجر: "واعتقل مع **ابن تيمية** بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة، فلما مات أفرج عنه. وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى **ابن تيمية**"، "جرت له محن مع القضاة، منها في ربيع الأول، طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يفتي به من ذلك"

- العليمي: "وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع **الشيخ تقي الدين** في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ".

- حاجي خليفة: "وغلب عليه حب **ابن تيمية**، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، واعتقل معه بالقلعة بعد أن أهين وطيف على جمل [مضروبا بالدرة]، فلما مات أفرج عنه".

٣٩- يشتد العجب من القصص التي يذكرها المؤرخون عن محن بعض الأئمة بسبب مسائل علمية، مثل: الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، جواز المسابقة بغير محلل، قصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي..

والعجب هنا من ناحيتين:

- **الأولى:** أن تكون هذه المسائل مسائل امتحان وإيذاء وأن تكون محاولة ثني المتكلم عنها بالقوة والإكراه، وهذه مسألة يزول العجب عنها بعد التعرف على أحوال المجتمعات وقتها وما كان فيها من تعصب علمي وجور سلوكي على أساس الطائفية والطرقية التي أحاطتها عوامل كثيرة تؤدي إلى هذه النتيجة.

- **الثانية:** مسألة الرجوع التي نتجت عن هذه المحاولات، وموضع العجب أمران، أولهما: أنه رجوع متكرر، فما من مسألة منها إلا حكوا فيها رجوعًا، وثانيهما: أنه رجوع نظري فقط، فلا يمكن أن نظفر بكلام آخر لهذا العالم الذي يقولون إنه رجع مخالفًا لكلامه هذا الذي يقولون إنه رجع عنه، فالمصنفات الأولى باقية ومنتشرة ومشتهرة ومتداولة وحججها قائمة تنادي بالمناقشة العلمية لما فيها، فمنها ما نوقش ومنها ما لم يناقش، وبين الفريقين في بعضها المناقش سجال.

هذا ما أحببت أن أشيء إليه وأنا أمر على هذه الكلمات المتكررة في ترجمة بعض المؤرخين لابن القيم مما يشبه هذه الحال التي نتكلم فيها، ومنها هذه الكلمات:

- ابن كثير: انفصل الحالُ على أن أظهر الشيخ شمس الدين... الموافقة للجمهور

- ابن حجر: "جرت له محن مع القضاة، منها في ربيع الأول، طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يفتي به من ذلك".

- ابن شاهين الظاهري: "وأفتى بجواز المراجعة من الطلاق الكبير بغير محلل، وامتحن بسبب ذلك حتى رجع عنه" [وقد سبق بيان خطأ هذه المسألة من أساسها].

٤٠- بدأ **الإمام ابن القيم** طلب العلم في عمر السابعة، كما يظهر ذلك من تاريخ ولادته ووفيات بعض شيوخه وما ذكر من أخذه عنهم.

وقد ساعد على هذا التوجه المبكر:

- علم والده.

- البيئة العلمية التي حوله.

٤١- من الكتب التي تحدثت عن **ابن القيم رحمه الله تعالى**: **" ابن قيم الجوزية حيَاته آثاره موَارده" للشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله تعالى** - وهو كتاب يغني عن ما سواه ولا يغني سواه عنه، ومن جمع معه كتاب: **"ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها"، للدكتور جمال بن محمد السيد**.. يستغن عن كل ما عداهما.

٤٢- كانت دمشق حاضرة علمية عظيمة وكانت مكتظة بالعلماء، ومع هذا نقلت إلينا كتب التاريخ والتراجم رحلة **ابن القيم** إلى: مصر، القدس، ومكة، والمدينة، وبعض مدن الشام.

٤٣- كانت حياة **ابن القيم رحمه الله تعالى** مرآة يرى علمه من خلالها، وقد أحصيت أثر علمه في عمله من جهة شخصيته ومن جهة عبادته، فأما الجهة الأولى فقد قدمت فيها: جرأته وشجاعته وصدعه بالحق، وحسن خلقه وتواضعه، وصبره.. إلخ.

وأما الجهة الأخرى فمنها: طول صلاته إلى الغاية القصوى، وتهجده، ابتهاله وتضرعه ودعاؤه، افتقاره إلى الله، وانكساره، واطِّراحه بين يدي الله على عتبة عبوديته، لَهَجه بالذكر والإنابة والاستغفار، اشتغاله بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، مجاورته بمكة واشتغاله بالعبادة من غير فتور، حتى إن أهل مكة كانوا يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمرًا يُتَعَجَّب منه، وزهده.

٤٤- ثناء العلماء على **ابن القيم:**

تنوعت كلمات الأئمة في الثناء على **شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالى** - ومن هذه الكلمات التي نقلوها أو قالوها ما يلي:

- القاضي برهان الدين الزُّرَعي: "ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه".

- الإمام المزي - وهو شيخه -: المزي: "هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه".

- الصفدي: "لم يخلف **الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية** مثله".

- ابن كثير: "صار فريداً في بابه في فنون كثيرة... وبالجملة: كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله".

- ابن رجب: "... ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرفَ بمعاني القرآن والسنة، وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله".

- ابن حجر: "ولو لم يكن **للشيخ تقي الدين** من المناقب إلا تلميذه **الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية**، صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غاية في الدلالة على عظم مَنْزلته".

- ابن تَغري بردْي: "أحد أفراد زمانه".

- ابن العماد: "المجتهد المطلق".

- المقريزي: "أحد أفراد الدنيا".

- برهان الدين ابن مفلح: "وقد أثنى عليه الذهبي ثناء كثيرًا".

هذه بعض أقوالهم عنه رحمهم الله تعالى أجمعين.

٤٥- كلمات أهل العلم في لقاء **ابن القيم** شيخه **ابن تيمية** وملازمته له وانتفاعه به.

لا تخلو ترجمة **ابن القيم** في كتاب - غالبًا - من ذكر لقائه **بشيخ الإسلام ابن تيمية**، وتدل عباراتها على معان كثيرة، وفيما يلي شيء من هذه التعبيرات:

- الصفدي: ومنهم **الشيخ الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية**؛ قرأ عليه قطعة من «المحرر» تأليف جده.."، "وأخذ الفرائض أولًا عن والده وكان له فيها يد، ثم على إسماعيل بن محمد، ثم على **الشيخ تقي الدين ابن تيمية**.."، "ومنهم **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** قرأ عليه قطعة من «المحصول»، ومن كتاب «الإحكام» للسيف الآمدي.."، "وقرأ على **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** قطعة من الكتابين وكثيرًا من تصانيفه".

- ابن شاكر الكتبي: ولما عاد **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا".

- أبو المحاسن الحسيني: "تفقه **بشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية**، وكان من عيون أصحابه".

- ابن كثير: "ولما عاد **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا".

- ابن رجب: "ولازم **الشيخ تقي الدين** وأخذ عنه".

- تقي الدين الفاسي: "تفقه **بالشيخ تقي الدين ابن تيمية**، وأخذ عنه فنونا من العلم، وكان من [جلة] أصحابه".

-ابن ناصر الدين الدمشقي: ولازم **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** وأخذ عنه علمًا جمًّا".

- المقريزي: ولزم **شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية** بعد عوده من القاهرة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة حتى مات، وأخذ عنه علمًا جمًّا، فصار أحد أفراد الدنيا.

- ابن حجر: "وغلب عليه حب **ابن تيمية** حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه".

- بدر الدين العيني: "ولازم **الشيخ تقي الدين ابن تيمية** لما رجع من الديار المصرية إلى الديار الشامية".

- ابن تغري بردي: "ولزم **شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية** بعد عوده من القاهرة في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وأخذ منه علمًا كثيرًا، حتى صار أحد أفراد زمانه"، "وقرأ على الشيخ تقي الدين بن تيمية قطعة من الكتابين وكثيرا من تصانيفه، واشتغل كثيرا وناظر واجتهد، وأكب على الطلب، وصنف، وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول فقها وكلاما والفروع والعربية، ولم يخلف الشيخ تقي الدين بن تيمية مثله".

- الداوودي: "ولازم **الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية**، وأخذ عنه الفقه والفرائض والأصلين".

- الشوكاني: "وغلب عليه حب **ابن تيمية** حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، بما صنفه من التصانيف الحسنة المقبولة، واعتقل مع **ابن تيمية**".

٤٦- ومما يتصل حديثه بحديث العجب من أسباب المحن التي تعرض لها **ابن تيمية** و ابن القيم - رحمهما الله تعالى - ما يذكره الصلاح الصفدي في أعيان العصر"، وهو يسرد تصانيف ابن القيم.

قال - رحمه الله تعالى -: "ومن تصانيفه: .. كتاب «الكافية الشافية لانتصار الفرقة الناجية» وهو نظم [نحو] ستة آلاف بيت، وهذا الكتاب لما وقف عليه شيخنا العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي أنكره وتطلبه أيامًا".

٤٧- شيوخ ابن القيم كثيرون، فمنهم في الحديث: الشِّهاب العابر، وابن مكتوم، والكَحَّال، وابن عبد الدائم، والوَدَاعي، والمُطْعِم، والبهاء بن عساكر، والبدر ابن جماعة، والذهبي، والبعلبكي، وابن الشيرازي، والمزي.

وفي العربية: البعلبكي، والتونسي.

وفي الفقه: **ابن تيمية**، وأخوه شرف الدين ابن تيمية، والمجد الحراني، والبعلبكي.

وفي الفرائض: والده، والمجد الحراني، وابن تيمية.

وفي أصول الفقه: صفي الدين الهندي، والحراني.

وفي أصول الدين: الصفي، والتقي.

وبالجملة فشيوخه - رحمه الله تعالى - كثرة، مشهورون، أئمة، وممن لم أذكرهم: ابن سيد الناس، وابن الزملكاني، وابن مفلح.

بل تلقى ابن القيم على نساء، ومنهن: فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر، البطائحي.

وكلهم دمشقيون.

٤٨- **ابن القيم رحمه الله تعالى** هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز بن مكي زين الدين.

وكنيته: أبو عبد الله.

ولقبه: شمس الدين، وتختصر إلى الشمس.، وعادة أهل العلم تلقيب من اسمه محمد بلقب: شمس الدين = الشمس، ومن اسمه أحمد بلقب: شهاب الدين: الشهاب.. وهكذا، هذا في الغالب.

والزُّرَعِيُّ في ترجمته معناها: نسبة إلى قرية (زرع) من بلاد حوران، وهي اليوم بلدة في محافظة درعا، يقول لها العوام اليوم: (إِزْرَع).

و ابن قَيِّم الجوزية معناه أن والده كان قيمًا على مدرسة اسمها الجوزية، وكان أشهر من تولى هذا المنصب.

والدمشقي: نسبة إلى بلده وموطنه.

٤٩- حرَّر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى قائمة مؤلفات **ابن القيم رحمه الله تعالى** وقد اشتملت على ٩٨ كتابًا.

ومن أبرز هذه الكتب:

- اجتماع الجيوش الإسلاميَّة على غزو المعطلة والجهمية.
- أحكام أهل الذمة.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

- بدائع الفوائد.
- التبيان في أقسام القرآن.
- تحفة المودود بأحكام المولود.
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.
- حكم تارك الصلاة.
- الداء والدواء.
- الرسالة التبوكية.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.
- الروح.
- زاد المعاد في هدي خير العباد.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
- الفروسية.
- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

- الوابل الصيب من الكلم الطيب
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
- مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

وكل كتبه رحمه الله تعالى مفيدة نافعة، جزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

٥٠- يعود الفضل العظيم على ابن القيم في تحصيله العلمي - بعد فضل الله تعالى - إلى الأسرة التي نشأ فيها، والوطن الذي عاش بين أفراده، وما نزعت إليه نفسه بعد هذا الوطن من رحلات وتنقلات، مع ما حباه الله تعالى من قدرات ومواهب، وما منّ به عليه من فضل عظيم في لقيا ابن تيمية وملازمته.

وعلى هذه العوامل الخمسة تدور عوامل تفوقه وأسباب تميزه.

٥١- هذه العبارة التي قالها الصفدي في ابن القيم لها بريق خاص في عقلي لم يفارقني من وقت أن قرأتها إلى الآن: "واشتغل كثيرًا، وناظر، واجتهد، وأكبّ على الطلب، وصنف، وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول فقهًا وكلامًا والفروع والعربية، ولم يخلف **الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية** مثله".

هذه العبارة تمثل حياة ابن القيم العلمية.

وتكمل حياة ابن القيم إذا أضفنا إليها عبارة ابن رجب: "وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار،

والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علما، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله".

وهذه العبارة تمثل حياة **ابن القيم** السلوكية.

وبهما أختم الكلام في سيرة هذا **الإمام العظيم رحمه الله** وغفر له وكتب أجراه وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.